المحاضرة السابعة –الإنتفاضات الشعبية قبل الحرب العالمية الأولى:

(حادثتي الجلاز والترامواي)

ساهم تطور المشهد السياسي التونسي في تطور أشكال الإحتجاج مثل التظاهر والمقاطعة وتوجيه العرائض والوفود، فإضافة إلى مظاهرة الطلبة الزيتونيين، وقبلها أحداث تالة والتي قام فيها مجموعة من قبيلة الفراشيش يومي 26- 27 أفريل 1906 بالهجوم على ضيعات المعمرين للردّ على تعدياتهم والتجمهر أمام المراقبة المدنية، حيث تم استعمال العنف المسلح لوقف الحركة، وكانت هذه التطورات كفيلة بتصاعد الإحتقان الجماهيري الذي يبرز في أحداث هامة:

أولا -يوم الجلاز[1] في 7نوفمبر 1911:ارتبطت هذه الواقعة بأسباب غير مباشرة و أخرى مباشرة نذكر منها :

1-الأسباب غير المباشرة:

- تعاظم نشاط الشباب التونسي وتأثيره على نظام الحماية. – تردّي الأوضاع الإقتصادية وارتفاع أسعار القمح نتيجة الجفاف وشراء الجيوش التركية والإيطالية المتحاربة بطرابلس لكميات كبيرةمن القمح. - اشتداد وطأة الضرائب على السكان ومقاومتها بالإحتجاجات مثل الرسالة التي أرسلها الشاذلي درغوث إلى السلطات المحلية في سبتمبر 1910 تحت عنوان "رسالة الشكوى الأهلية من كثرة الضرائب والسنتيمات الإضافية "[2].

-احتلال إيطاليا لليبيا 29 سبتمبر 1911 وتضامن الشعب التونسي مع الليبين ومشاركة العديد منهم كمتطوعين في هذه الحرب، واشتداد حقد التونسيين ضد الجالية الإيطالية ونقمتهم على الإستعمار ومظاهره.

-احتلال فرنسا لفاس في 21ماي 1911 وأثر ذلك في إضرام نار الحقد ضد الفرنسيين .

2- السبب المباشر: قرّرت السلطات الفرنسية ببلدية تونس العاصمة تسجيل مقبرة الجلاز في السجل العقاري وفق طلب تم تقديمه إلى المحكمة العقارية من طرف رئيس البلدية في 26 سبتمبر 1911، ونشر مطلب التسجيل في الرائد التونسي في شهر أكتوبر 1911 تبعا للإجراءات القانونية الجاري العمل بها، وعُيّن يوم 07 نوفمبر 1911 لعملية التسجيل، وفعلت الدعاية مفعولها بالإعتقاد الشعبي الذي يرى أنّ العقار المسجل يتلبس بالجنسية الفرنسية[3].

---

[1] . مقبرة إسلامية تقع في المدخل الجنوبي للعاصمة التونسية نسبة إلى محمد الزلاج القيرواني عاش في ق 7هـ/ق 13م الذي اشترى قطعة أرض من يهودي ليتم فيها دفن المسلمين، وتعود أهميتها كونها تحتوي على جبل التوبة وبه مغارة الشيخ أبي الحسن الشاذلي دفن فيها العديد من العلماء والصلحاء، وكان بعض الناس قد عمدوا إلى فتح محاجر في جبل التوبة الداخل في أرض الوقف، وأرادت البلدية تسجيل أرض المقبرة بتقديم طلب للمحكمة العقارية المختلطة بتاريخ 26 سبتمبر 1911، عن المقبرة أنظر: هشام عبيد،تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة مناقب الصوفية ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2006، ص 373؛ أيضا:محمد المرزوقي، والجيلاني بلحاج يحي،معركة الزلاج 1911،الشركة الوطنية للتوزيع،ط2، 1974، ص 17 ومابعدها .

[2]. نفسه.ص14-15.

[3] . كما انتشرت معلومات تبرز الأهداف من تسجيل أرض المقبرة والمتعلق بأخذ جانب منها لتشقه السكة الحديدية للترام ،للتفاصيل ينظر: الحاج بن يحي، المرزوقي، المرجع السابق،ص ص 18- 19 .

3–أحداثها: اجتمعت الجماهير الشعبية يوم 07 نوفمبر 1911 أمام المقبرة وزاد شكّهم رسوخا حين وجدوا أبواب المقبرة مغلقة في وجوههم بأمر من السلطة، وقامت مظاهرة كبرى أمام المقبرة مما أدّى إلى حدوث اصطدامات شعبية مع الجالية الأوروبية خاصة الإيطالية، واجتمعت جماهير غفيرة لحماية المقبرة –ورغم حضور شيخ المدينة ورئيس البلدية السيد " الصادق غيلب "يصحبه مندوب الكاتب العام للحكومة التونسية الفرنسي وأخبرهم عن إلغاء عملية التسجيل إلا أنّ الإنتفاضة تطورت وانتشرت في أنحاء العاصمة،فهجمت الجماهير على شيخ المدينة واتّهمته بالخداع والمكر، وأدّى ذلك إلى تصادم بين أعوان الأمن والجموع المتظاهرة، والجالية الإيطالية التي حاولت الغدر بالتونسيين، وتعاملت فرنسا مع الأحداث بقمع وقوة، ونتج عنها مايلي:

– سقوط ضحايا تمثل في قتلى فرنسيين وإيطاليين،أمّا التونسيين فكان مرتفعا دون تحديد عددهم بعد قيام بعض الإيطاليين بالهجوم على التونسيين والغدر بهم[1]، كما تمّ محاكمة عدد من المتظاهرين أسفر ذلك عن إصدار أحكام على 35 من المتظاهرين التونسيين منهم 07 بالإعدام، والتحجير على الصحف باستثناء جريدة الزهرة الرسمية.

– إعلان حالة الحصار بمدينة تونس ومراقبة المدنية بمقتضى أمر صادر في 13 نوفمبر 1911 بإمضاء الباي ينص على حق السلطة العسكرية في تفتيش كل السكان المشبوه فيهم .–أمر بمنع الإجتماعات وحظر التجول ليلا حيث يمنع تجمع لأكثر من 3 أشخاص وغلق المقاهي بالأحياء العربية .–اتهام فرنسا جماعة الشباب التونسي بالتورط في الحادثة وتحميلهم مسؤولية ما وقع [2]،ومع ذلك لم تثبت مسؤولية الشباب التونسي في هذه الحوادث.

ونخلص إلى أنّ هذه الإنتفاضة كانت رد فعل جماهيري ضد الإعتداءات الإستعمارية التي مسّت المقدسات الدينية، ولذلك يمكن إعطاء أولوية لتفسير الدافع الديني وراء هذه الأحداث وتطوراتها وشموليتها لأحياء العاصمة، كما ساهمت الصحافة في تعبئة الراي العام بطريقة غير مباشرة، ومع أنّ هذه الحادثة انتهت إلاّ أنها شكلت تمهيدا لأحداث جديدة.

ثانيا – حادثة تراموای فيفري 1912: جاءت بعد حادثة الجلاز وارتبطت بأسباب وتطورات :

1– سببها المباشر : تمثل في دهس سائق إيطالي طفل تونسي بالنهج الرابط بين باب السويقة وباب بوسعدون في 08 فيفري 1912 ،ونتج عنه موت الطفل.

2–أحداثها : أدّى ذلك إلى استياء التونسيين مما نتج عنه مقاطعة التونسيين للقطارات وعربات الترامواي [3]والدفاع عن مطالب المستخدمين التونسيين في تلك الشركات الأجنبية، والمطالبة بالمساواة بين جميع عمال الشركة وإلغاء التمييز بين العمال دون استثناء، وقد شاركت حركة الشباب التونسي في الحادثة، ورفضت الإمتثال لأوامر السلطة بالعدول عن مقاطعة الترامواي قبل الحصول على تنازلات جوهرية من شركات الترامواي والمطالبة بنفس

---

[1] .القصاب، المرجع السابق،ص 494.

[2] .السروجي، العلاقات التونسة الفرنسية،ص 198.

[3]. وخاصة عربات التراموي التي يسوقها الايطاليون، ونظرا للغضب الشديد الناتج عن احتلال إيطاليا لطرابلس واستفزار الرعايا الايطاليين للتونسيين وافتخارهم بانتصارها على ليبيا، المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية،ص ص 148-149.

الإمتيازات التي يتمتع بها زملاؤهم الأوربيون.وتم تأسيس لجنة مقاطعة برئاسة علي باش حانبه قصد الإشراف على هذه الحركة والوساطة بين شركة الترامواي وأهالي مدينة تونس، وحدّدت مجموعة من المطالب أبرزها :- التزام شركة الترامواي باستخدام عمال فرنسيين وتونسيين ونسبة قليلة من الأجانب— المساواة في الأجور والمنح والترقية بين جميع موظفي الشركة دون تمييز — تنظيم مصلحة لمراقبة السرعة بالأحياء العربية[1].

وإضافة إلى هذه المطالب والمقاطعة المنظمة، حاول السكان تنظيم مظاهرات احتجاجية على تصرفات حكومة الحماية بشوارع المدينة فتمّ إفشالها بغلق الطريق أمام الجماهير، كما ينسب إلى علي باش حانبه أنّه أضاف إلى المطالب المذكورة سابقا تمكين التونسيين من حق الإقتراع [2].

وأمام تطور الأوضاع واستمرارية المقاطعة قررت فرنسا اتخاذ إجراءات ردعية من طرف المقيم العام بتاريخ 13 مارس 1912 تمثلت فيما يلي:

- إيقاف سبعة عناصر ونفي أربعة منهم:وهم علي باش حانبه وعبد العزيز الثعالبي ومحمد النعمان إلى فرنسا، وإلى الجزائر حسن القلاتي،وإلى تطوان صادق الزمرلي والشاذلي درغوث [3].كما وقع تعطيل جريدة "LeTunisien"، وعلى إثرها هاجر باش حانبه إلى اسطمبول .ويصف الفاضل بن عاشور الوضع بعد نهاية الحوادث بقوله "فخمدت الحركة الفكرية وساد عليها الركود ، وانقبع الناس كل في محيطه الخاص فلم يبق للأفكار انتشار .."[4] .

كما أنّ سلطة الحماية اقتنعت بعدها بأنّ أسلوب القمع لا يجدي نفعا إذا أراد النظام الإستعماري الإستمرارية، وهو ماجعله يسعى إلى التخفيف من التناقضات بين الجاليات وتحسين وضعية الأهالي، فقام بفك المقاطعة بإلغاء ضريبة المجبى، وبعث هياكل اجتماعية، كما قامت بإطلاق سراح المعتقلين والسماح للمنفيين بالعودة[5].

وبهذا كانت نهاية النضال الذي تزعمته حركة الشباب التونسي بعد تعرضها لضربة قاصمة نتيجة الأحداث التي ساهم فيها قادتها بتحالف مع الجماهير، وأدّى إلى إدخال الحركة الوطنية التونسية في ركود تام طيلة الحرب العالمية الأولى.

---

[1] . علي المحجوبي، الحركة الوطنية التونسية بين الحربين، مقاربة، منشورات الجامعة التونسية،تونس، 1986، ص37.

[2] . الخليفة الشاطر وآخرون، المرجع السابق،ص 81.

[3] . عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة،ترجمة وتقديم: سامي الجندي، دار القدس،ط1، بيروت،1975، ص13.

[4] . الفاضل بن عاشور، المصدر السابق،ص 137.

[5] . الدقي، من الأيالة إلى الجمهورية،ص 98.